

الفضاء الرقمي وإشكالية بناء الهوية عبر مواقع التواصل الاجتماعي

Digital Space and the Problematic of Building Identity through Social Media

جفاقة داود	جهاد صحراوي*
مخبر الدراسات النفسية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)	مخبر الدراسات النفسية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)
d.djefaf@univ-biskra.dz	djihaad.sahraoui@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/20 تاريخ القبول: 2023/09/04

ملخص:

تعتبر إشكالية بناء وتمثيل الهوية الافتراضية وذات الفرد المتواصل عبر الفضاء الرقمي الذي تتيحه شبكة الأنترنت ومواقعها الاجتماعية من أهم الإشكاليات الحديثة التي تطرحها العلوم الإنسانية والاجتماعية بصفة عامة، خاصة وأن هذه الهويات أصبحت غير ثابتة ومتحولة تنشط في إطار غير مرتبط بأي نوع من الحدود الجغرافية أو الزمانية المعروفة، تستجيب للتغيرات السريعة التي يفرضها الفضاء المعلوماتي الرقمي، تمنح بين الرغبة في التواصل داخل عالم افتراضي وبين الرغبة في التخلص من الإلتزامات الاجتماعية التي يفرضها الواقع، وعليه تهدف هذه الدراسة النظرية الى التعرف على كيفية بناء وتمثيل الهوية الافتراضية عبر الفضاء الرقمي، ومدى اعتباره بمثابة تلك الحياة الثانية للإنسان التي يعيش فيها بالموازاة مع حياته في العالم الحقيقي وأيضاً التعرف على أهم تمثيلات هذا الفرد المرتبط بالأنترنت لهويته عبر المواقع الاجتماعية

كلمات مفتاحية: الفضاء الرقمي؛ مواقع التواصل الاجتماعي؛ الهوية؛ الهوية الافتراضية؛ الذات.

Abstract:

The problematic of building the virtual identity and the self of individual chatting through the digital space offered by the Internet and its social sites is one of the most important modern problematics posed by the humanities and social sciences in general. Especially, since these identities have become immutable and transformative, operating within a framework which is unrelated to any kind of familiar geographical or temporal boundary, responding to the rapid changes imposed by the digital information space and mixing between the desire to communicate within a virtual world with the desire to get rid of the social obligations imposed by reality. Thus, this theoretical study was aimed at identifying how virtual identity is built and represented across digital space, and how much it is considered to be that second life in which a human being lives in parallel with his life in the real world, as well as the most important representations of this Internet - linked individual toward his identity via social media.

Keywords: digital space; social media; identity; virtual identity; self.

مقدمة:

يعد التطور التقني لتكنولوجيات الاتصال الذي نتج عن ثورة المعلومات التقنية، الى جانب الثورة الأنترنتية وما أتحته من تقنيات للتواصل بين الأفراد، وتنامي هذه الشبكة التي اختزلت أبعاد عالمنا الجغرافي بفعل شبكاتها الاجتماعية، التي أصبحت بمثابة تلك العوالم الرقمية التي تنافس تماثلات الأفراد المستخدمين لأنفسهم في العالم الواقعي، "مما أدى الى تغيير جذري في طرائق عيشنا وعملنا وتواصلنا، بل وفي الطبيعة النوعية لأفكارنا ومشاعرنا وقيمنا وثقافتنا وهوياتنا، وكذا في كيفية فهمنا لبعضنا البعض"¹، فالإنسان أصبح يعتبر هذا النوع من التكنولوجيا الرقمية جزءا كبيرا من امتداداته في الواقع، إذ يعتبرها في بعض الأحيان عضوا من أعضائه الحيوية كاليد والعين والأذن فبها يتحسس العالم الخارجي، ويقوم أيضا على تمثيل نفسه عبرها أمام المستخدمين الآخرين.

في هذا الإطار تعد مواقع التواصل الاجتماعي من أهم نواتج هذه الثورة الأنترنتية، فهي التي جعلت الأفراد يؤسسون الى نوع جديد من المجتمعات والدوليات الجديدة، لا هي واقعية بالمطلق ولا هي رقمية أو افتراضية بالمطلق، هي مجتمعات تحاول أن تمزج بين الحقيقة والخيال لدى أعضائها، بالإضافة الى ذلك ساهمت في تأسيس نوع جديد من فضاءات النقاش والحوار بشكل رقمي داخل تلك المجتمعات الجديدة، هذا النوع من الفضاءات يعمل على فتح آفاق واسعة للفرد المستخدم من حيث إمكانيات النقاش والحوار والانضمام الى مجتمعات أخرى غير المجتمعات التي نشأ فيها، أي أنه يضفي عليه قيمة تواصلية علمية، ومن هنا بدأ الحديث عن ظهور الفضاءات الرقمية التي تتيح إمكانية النقاش حول الكثير من القضايا التي يغلب عليها في بعض الأحيان الطابع الخاص لدى الأفراد، إذ تحاول جعل الأفراد الفاعلين فيها يستحضرون جزء من خصوصياتهم للنقاش العام عبرها، وبذلك تبرز هنا إشكالية أخرى مرتبطة في جزء كبير منها بخصوصيات الأفراد المستخدمين، ألا وهي إشكالية الهوية وكيفية التعبير عنها وبنائها من قبل هؤلاء الأفراد ضمن هذه الفضاءات الرقمية لمواقع التواصل الاجتماعي.

إن الحديث عن موضوع التعبير عن الهوية لدى المستخدمين في الفضاء الرقمي الذي تسيطر عليه المواقع الاجتماعية، يرتبط دوما بإمكانية الفرد المستخدم على استحضار ذواته عبر هذا الفضاء، حيث إن هوية المستخدم للمواقع الاجتماعية التي يحاول بناء عالمه الافتراضي من خلالها انطلاقا من التواصل مع المستخدمين الآخرين، وايضا تحديد الكيفية التي يتواصل بها معهم من خلال المعلومات الشخصية التي يستحضرها على صفحته الشخصية (اسمه وصورته الشخصية بلده انتماءاته... الخ)، تعتبر غامضة جدا خاصة في السنوات الأخيرة، إذ قد يطمح هذا الفرد في بعض الأحيان الى عرض معلومات حقيقية للتعبير عن شخصيته الحقيقية في الفضاء الرقمي، أو قد يقوم في بعض الأحيان الأخرى بعرضها بشكل مزيف لا علاقة له بشخصيته الحقيقية، وبالتالي هنا يقوم ببناء شخصية تخيلية تعبر عن ما

¹ عثمان، صلاح، (اوت 2020)، المواطنة الرقمية وازمة الهوية، المركز العربي للبحوث والدراسات، متاح على الرابط التالي <http://www.acrseg.org/41703>

يطمح لأن يكونه والواقع لا يحقق له ذلك، والشبكات الاجتماعية الرقمية وفرت له البيئة التي يستطيع من خلالها أن يكون ما يشاء وأن يبنى الشخصية التي يشاء دون أي قيود تفرض عليه.

لقد ساهم الفضاء الرقمي الذي تتيحه تكنولوجيات الأنترنت في مجال التواصل الاجتماعي كما سبق وأشرنا بداية، في إعادة نقاشات الهوية الى مقدمة الأبحاث الفلسفية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، إذ أن هذا النوع الجديد لتمظهرات الهوية الإنسانية الشخصية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية لدى الأفراد هو نوع معقد الى درجة كبيرة، إذ تعتبر دراسته والتنبؤ بانتماءاته المجتمعية والوطنية صعبة جدا، وهذا لأن هذه الهوية أصبحت تنشط في إطار عالمي بلا حدود، أي أنها تبنى وتشكل لدى المستخدمين في إطار عالمي ومتعدد الانتماءات، فقد يتمظهر المستخدم الواحد بهويات متعددة وذوات متشظية في الآن نفسه بغية تحقيق الانتماء الى أكثر من فئة مجتمعية أو عالمية، وبالتالي فالإنسان هنا أصبح عبارة عن ذوات متداخلة ومتفرقة في نفس الوقت وليس ذات واحدة فقط.

انطلاقا مما سبق طرحه في هذه الإشكالية يمكن لنا طرح الإشكال المركزي التالي: كيف يمكن لنا فهم تمظهرات الهوية في المواقع الاجتماعية أو كيف يعبر الإنسان عن هوياته في الفضاء الرقمي؟

وهنا نجد أنفسنا أمام إشكال محوري يتناول موضوع بناء هوية الأفراد افتراضيا عبر الفضاءات الرقمية لمواقع التواصل الاجتماعي، من حيث الصفات والميزات والمحددات التي أصبحت تشكل ملامحها وتمثلاتها لدى هؤلاء الأفراد المستخدمين عبر هذا الفضاء الرقمي، لذلك سنعمل في هذا الإطار على تقديم قراءة نظرية في الأسس والمحددات التي تبنى من خلالها هذه الهوية وكذلك المفاهيم المعبرة عنها وتمثلاتها لدى الأفراد، حتى تتمكن من إعطاء رؤية واضحة لكل ما يتعلق بهذا الموضوع من خلال الإجابة على مجموعة من الأسئلة الفرعية التي طرحناها كتفكيك للإشكالية الرئيسية حتى تتمكن من الإجابة عليها بشكل أدق:

1- هل يمكن اعتبار الفضاء الرقمي بمثابة الحياة الثانية للإنسان يعيش فيها بالموازاة مع حياته في العالم الحقيقي؟

2- ماهي أهم تمثيلات الفرد المستخدم (الفرد الأنترناتي) لهويته عبر الفضاءات الرقمية لمواقع التواصل الاجتماعي؟

3- لماذا يتم الحديث عن هويات متعددة تعبر عن ذوات المستخدمين لهذه المواقع الرقمية؟

أهداف هذه الورقة البحثية:

تهدف هذه الدراسة النظرية الى محاولة تفكيك العلاقة بين الفضاء الرقمي الذي تتيحه الشبكات الاجتماعية وإشكالية بناء الهوية الرقمية لهؤلاء الأفراد المتواصلين عبره، خاصة من حيث ازدواجية العيش بين حيتين لدى هذا الفرد (الإنسان): الأولى حقيقية تعبر عن ما هو موجود في الواقع والثانية ارتبطت بالألة كوسيط للتعبير عنه وعن تمثالاته الرقمية، وبالتالي فهي رقمية افتراضية قد تكون مجموعة من

التخيلات لا وجود لها في الواقع، بالإضافة الى التوصل الى معرفة السبب الحقيقي وراء تشظي هوية هذا الإنسان الذي أصبح ينتمي الى الفضاء الرقمي أكثر من انتمائه للواقع الذي يعيش فيه.

1- الكشف عن العلاقة بين الحياة الواقعية للمستخدم الرقمي (الإنسان الرقمي) وحياته الثانية التي يعيش فيها عبر فضاءات مواقع التواصل الاجتماعي.

2- البحث عن أهم تمثيلات الفرد المستخدم (الفرد الأنترناتي) لهويته عبر الفضاءات الرقمية لمواقع التواصل الاجتماعي.

3- التوصل الى معرفة أهم الهويات المتعددة التي تستخدم للتعبير عن ذوات الأفراد المستخدمين أمام الآخرين عبر الأنترنت.

ومن هنا يمكننا الإجابة على تساؤلات هذه الدراسة وبلوغ أهدافها التي سطرناها انطلاقاً من محاولة تفكيك الإشكالية العامة لهذا الموضوع الى العديد من المحاور الأساسية:

✓ الفضاء الرقمي وإشكالية ظهور المفاهيم الجديد.

✓ الفضاء الرقمي وجدلية الانتقال الهوياتي من الواقعي الى الافتراضي أو ميلاد الذات الإنسانية الجديدة.

✓ هويات متعددة تعبر عن ذوات غير ثابتة.

✓ تمثيلات الفرد الأنترناتي لهويته الرقمية السائلة أو الهوية من الثبات الى المرونة في الفضاء الرقمي.

والتي نبدأ بأولها كما يلي:

1. الفضاء الرقمي وإشكالية ظهور المفاهيم الجديد:

لو نعود قليلاً الى الوراء في بحثنا عن مفهوم الفضاء الرقمي، "لوجدنا أنه بدأ مساره كمصطلح في أدب الخيال العلمي عام 1980، وفي التسعينيات من القرن الماضي أصبح يشير الى مجموعة الأشخاص الذين يعيشون في مكان واحد أو مؤسسة أو بيت واحد وهم في حاجة الى الاعتناء ببعضهم عن طريق تقسيم توفير المستلزمات الضرورية، ثم اتسع نطاق استخدامه من قبل محترفي الكمبيوتر ومستخدمي الأنترنت والشبكات والاتصالات الرقمية، التي بدأت تنمو بشكل كبير مطلع هذه الألفية، وكان مصطلح "الفضاء الرقمي" قادرة على تمثيل العديد من الأفكار والظواهر الجديدة"¹، المرتبطة بعوالم الأنترنت وشبكاتها الرقمية، هذه العوالم التي تمنح في مجملها حياة ثانية للأفراد المستخدمين، فهي تجعل الإنسان يعيش ضمن نوعين من الحياة: الأولى واقعية ارتبطت بما يعيشه في واقعه بين المجتمع الذي نشأ فيه، أما الثانية هي رقمية افتراضية أصبحت مرتبطة بما يقوم به الإنسان عبر الأنترنت ومواقعها الاجتماعية، وهذا ما يسمى بالحياة

¹ طوابية، محمد، (جانفي 2019)، ايدولوجيا الفضاء الرقمي دراسة في الخلفيات المرجعية، الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، العدد 21، ص 47-58.

الثانية للإنسان المستخدم؛ حياة غير طبيعية بالمطلق تتيح لهذا الإنسان إمكانية بناء وتحقيق ما عجز عن بنائه وتحقيقه في حياته الأولى الطبيعية، بفعل الظروف الاجتماعية والإقتصادية التي يعيشها، إذ تمنح له ذلك الأمل في أن يكون ما يريد، من خلال تمثله لذاته الرقمية المبتغات والتي يريد أن يحققها والواقع لا يمكنه من ذلك، لاغية بذلك دور الشروط الزمانية والمكانية في تحقيق ذلك، وهذا لأنها تجعله ينشط في إطار لا زمني ولا مكاني، فلا حدود هنا تمنعه من تحقيق ما يريد عن طريق تمثله لذاته أمام الآخرين، حيث تفتح الباب للمستخدم لأن يكون مشهوراً أو قائد رأي لمجموعة رقمية معينة... إلخ، هذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فالفضاء الرقمي يمنح للإنسان المستخدم العديد من الأشياء الأخرى التي لا يمكن أن يحققها له الواقع.

لهذا يمكننا القول أن هذه "العوالم الافتراضية التي ألغت كل ما هو تقليدي بإستحدثت معايير جديدة للتواصل البشري، مخضعة إياه لتحولات الزمن والفضاء منتشلة بذلك العلاقات الاجتماعية من سياقات تفاعلها المحلي لتبنيها على مدى غير محدود من الانفتاح والتعدد، متجاوزة بذلك كل الحدود الجغرافية ومستحدثة ساحات جديدة للتفاعل الإنساني المباشر والمنفتح"¹، حيث أصبحت تلك العوالم التي هي تقوم بهندسة الإنسان الجديد في كل ما يتعلق بحياته من حيث الخصوصية وأيضاً الانتماءات الاجتماعية والإقتصادية، بل إنها تقوم بهندسة وتحويل سلوكياته الواقعية الى سلوكيات رمزية من خلال تفاعلاته في الفضاء الافتراضي.

بهذه وبفضل الثورة المعلوماتية والأنترناتية التي أنتجت لنا الفضاء الرقمي من خلال ثورة مواقع الشبكات الاجتماعية، برزت لنا العديد من المفاهيم الجديد التي توطر سلوكيات الأفراد عبر هذا الفضاءات الرقمية، فقد أصبحنا أمام مجتمع جديد غير طبيعي بالمطلق، وهو ما ندعوه اليوم بالمجتمع الرقمي Digital Society، وأمام إنسان أو فرد جديد أيضاً، يمكن أن ندعوه بالفرد الرقمي Digital Individual أو الفرد الأنترناتي، وهو ذلك الذي يعتبر الألة جزء من امتداداته في العالم الواقعي، بالإضافة الى ذلك ظهر لنا نوع جديد من المواطنة لدى هؤلاء الأفراد بناء على انتماءهم للفضاء الرقمي ألا وهي المواطنة الرقمية، "وهذه الأخيرة بمثابة مواطنة افتراضية Virtual Citizenship تنشط في فضاء إلكتروني تكنولوجي واسع المدى بلا حدود لا تحكمه أي انتماءات جغرافية أو وطنية، بل هي إنتماء الى العالم الإنساني ككل، هذا الفضاء تتعدد فيه الهويات وتتداخل القيم وتهاوى الخصوصية، وتزيف المشاعر وتنشق حقوق وواجبات جديدة تضع الهوية بمفهومها التقليدي في مأزق"²، مما يدعونا هنا الى الحديث عن مفهوم جديد كلياً للهوية مثلها مثل المفاهيم الأخرى التي غيرها الفضاء الرقمي، إذ أصبحنا اليوم نتحدث عن مفهوم الهوية الرقمية التي ترتبط بكيفية تمثّل الفرد لذاته في الفضاء الرقمي...، وغيره الكثير من المفاهيم الذي حولت الثورة التقنية حدود قياسها وأساليب التعرف عليها وفهمها عند الأفراد المستخدمين للتكنولوجيا.

¹ ميني، نور الدين ولصلح عائشة، (ديسمبر 2015)، المواطنة الرقمية عندما تصبح مواقع التواصل الاجتماعي فضاء للنقاش العمومي، مجلة تنمية الموارد البشرية، العدد 11، ص 328-345.

² عثمان صلاح، المرجع السابق، <http://www.acrseg.org/41703>

2. الفضاء الرقمي وجدلية الانتقال الهوياتي من الواقعي الى الافتراضي أو ميلاد الذات الإنسانية الجديدة.

يتميز الفضاء الواقعي الذي يتواصل فيه الأفراد بالطابع المحسوس والمعائن من حيث الزمان والمكان، فالمتواصلين عبره إنما يستحضرون أنفسهم بشكل فزيائي في مكان وزمان معين من أجل تبادل الأدوار والقيام بعملية الحوار، لكن ظهور مواقع التواصل الاجتماعي أدى الى ميلاد فضاءات حوارية جديدة، رقمية أو افتراضية ذات منشأ إلكتروني تجعل الإنسان يعيش في مجتمعين الأول واقعي والثاني افتراضي، ويحمل هويتين الأولى هويته الحقيقية الواقعية والثانية هويته الرقمية، والتي قد تكون في غالب الأحيان مزيفة، ينتمي الى وطنين الأول محدد الحدود والثاني بلا حدود، وهو الأمر الذي يفرض عليه العيش في عالمين مختلفين الأول واقعي حقيقي، والثاني تتوسطه الألة كمراً للآخر افتراضي في بعض الأحيان غير حقيقي، إذ تنبني هذه العلاقة من خلال أن الفرد المستخدم للتكنولوجيا في البداية تكون له حياة واقعية ثم يقوم بنقلها الى الفضاء الرقمي في شكل أو أشكال متعدد تتناسب مع طبيعة هذا الفضاء، وهذه ما نسميها مرحلة الانتقال من الفضاء الواقعي الى الفضاء الرقمي بالنسبة الى الأفراد الذين عايشوا الواقع قبل استخدامهم للتكنولوجيا الرقمية.

أما الافراد الذين ولدوا مع شيوع استخدام هذه التقنيات الرقمية، فإنهم يقومون ببناء حياتهم الرقمية أولاً على الأجهزة الإلكترونية المتاحة لهم من الصغر، ثم يحاولون بعد ذلك ومن أجل تأقلمهم مع الواقع الذي يعيشون فيه الانتقال من العالم الرقمي الى العالم الحقيقي، وهؤلاء سيلقون صعوبة كبيرة في التأقلم مع الواقع، لأن صورتهم الافتراضية تقريبا مزيفة، وهذا نظراً لأن مرتادوا الفضاء الرقمي يميلون دائماً الى صناعة صورة ذهنية غير حقيقية عن الواقع، انطلاقاً من محاولة التماهي مع ما يمكن أن يكون لا ما هو كائن، وهذا يعني "إن العيش في عالم يفتقد لمعالم العمران المادية في غياب واضح للجسد، سيحدث تغيرات شاملة على النفس والعقل، فالجسد في هذا الفضاء لا يمتلك أي ميل أو رغبة أو توجه محدد إتجاه البنية التي يقيم فيها، وينتج عن هذه الحالة حصول توترات شديدة بين الذات وحقل الإدراك الحسي الذي يحيط بها، إذ أن الذوات غير السوية في العالم الواقعي تختلف كلية عن الذوات غير السوية في العالم الافتراضي"¹، لأن القيام بتمثل الذات في الفضاء الرقمي لا يشبه أبداً تمثيلها في الواقع المحسوس الذي يعيشه الفرد المستخدم للتكنولوجيا الرقمية، حيث نجد أن العلاقة التي يقيمها هذا الفرد مع العالم الخارجي تختلف كثيراً عن ما يحيط به، فهو يقيم علاقاته بشكل طبيعي مع الآخرين الذين يعيشون معه في الواقع من مجتمعه الذي ينتمي اليه انطلاقاً من الاجتماع معهم وتبادل أطراف الحديث... وغيره، أما في العالم الرقمي الألة هي من تتوسط بناء هذه العلاقة في فضاء رمزي غير محسوس لا يلتقي فيه الفرد بمن له علاقة معهم إلا من خلال شخصيات تمثلية عن طريق ما تتيحه التكنولوجيات الرقمية، ويطلق على هذه الشخصيات في بعض الأحيان مسمى الأفاتار؛ أي الصورة الرمزية والرقمية لفرد معين لدى فرد آخر، تنتقل من خلال الوسيط الذي أطلقنا عليه تسمية الألة.

إن هذه العلاقة التي تنشأ بين الفرد المستخدم والآخر رقمياً تجعله في علاقة حتمية وجدلية مع الألة، بحيث تصبح هذه الأخيرة عامل مهما في صناعته لهويته عبرها، كما أنه يدفع بها إلى تطوير أدائها في منحى مضطرب نحو الكمال اللاهوائي، وهنا تغدو التكنولوجيا عاملاً لا غنى عنه للإنسان في إعادة التفكير في هويته، فكما أن الإنسان لا يني يدع في الدفع بكفاءة بالتقنية الوظيفية نحو مداها الأقصى¹، وهذا يظهر أن ملامح الانتقال من النسق التكنولوجي إلى النسق الطبيعي للأفراد الذين ولدوا في العصر الرقمي تعتبر صعبة جداً إلى حد ما، وهذا لأنهم كانوا قد أسسوا لحياتهم بشكل افتراضي على المواقع الاجتماعية للإنترنت، وينظرون إلى العالم عبر هواتفهم وحواسيبهم من خلال الصورة التي ينقلها الآخرين والتي هي في غالب الأحيان ما تكون مفلترة أو مزيفة.

"يقتصر حضورنا الجسدي في العالم الافتراضي على أفعال الرؤية والسمع، حيث ينحصر دورها الوظيفي في ملاسة جدران هذا العالم التي تمثل الألة الرقمية بينما تلج الأفكار والمشاعر إلى أعماق البنية الأساسية للفضاء الرقمي المتمثلة في الرغبة الاجتماعية في التواصل الفكري، إن الجسد يدرك جيداً أن لا مكان له داخل الفضاء الافتراضي، وأن هذا العالم لم يصمم لاستيعاب رغبات وميول الجسد، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقوم علاقة مشتركة بينهما، فالتفاعل معنوي، ومهما اقترب الجسد من هذا العالم فلن تحصل له اللذة التي يمكن أن تحصل له في العالم المادي، إنه بالفعل عالم خال من الأجساد"²، ولذلك فإن جسد المستخدم في هذا العالم يتجسد رمزياً من خلال شخصية رقمية (أفاتار) والتي تعني التمثيل الذهني للذات أو صورة رمزية افتراضية تقوم مقام الصورة الحقيقية لها في العالم الرقمي، يختارها المستخدم ليحاكي بها نفسه وهويته وذاته في شكل رمزي يسهل له عملية التواصل مع الآخر الذي ينطبق عليه نفس الشيء، وهذا من أجل إبراز شخصيته لدى أصدقائه الرقميين عبر الفضاء الاجتماعي الذي يتواصلون فيه،

"وتمنح للمستخدم حرية إعادة إنتاج ذاته بالشكل الذي يرغب به، فكل شخص يقدم نفسه بالطريقة التي تروق له، حيث من الممكن أن تكون امتداداً للذات في الواقع كما هي، أو تكون مختلفة عنها اختلافاً كبيراً جداً، بل إنها تتيح له إمكانية بناء ليس أفاتاراً واحداً فقط بل أفاتارات متعددة في موقع تواصل اجتماعي واحد أو ينوعها على حسب المواقع الاجتماعية التي يتواصل من خلالها"³، حيث "يدخل الأفراد هنا إلى العوالم الرقمية والافتراضية من خلال صورههم الرمزية، التي هي بمثابة تمثيلات رقمية محددة لأنفسهم الافتراضية، علاوة على ذلك تكون لديهم القدرة على استكمال الخصائص المادية لأفاتارهم من خلال إنشاء ملفات التعريف الخاصة بهم انطلاقاً من دمج المعلومات النصية والمرئية فيها"⁴ وإبرازها كمعبر عنهم أمام الآخرين.

¹ ابن غنيصة، نصر الدين، (ديسمبر 2018)، نحو قراءة لإشكالية الهوية والذات في الفكر الحدائثي الغربي، مجلة التواصل الأدبي، العدد 12، ص 69-97.

² طوالبة، محمد، المرجع السابق، ص 55

³ زكي، وليد رشاد، (19 أغسطس 2020)، قصة الأفاتار من السينما والأساطير إلى السوشيال ميديا، اصوات، متاح على الرابط التالي

<https://aswatonline.com/2020/08/19>

⁴ Nagy, Peter and Bernadett Kole, (2014), The digital transformation of human identity, Towards a conceptual model of virtual identity in virtual worlds, Convergence, The International Journal of Research into New Media Technologies, Vol. 20(3), 276-29

لأمر الذي يعني ميلاد الذات الآلية للإنسان المعاصر، الذات سايبورغ؛ والتي تعني كائن حي مهجن مع الآلة أو الكائن الحي السيبرنيطيقي، الذي يتمظهر من خلال اتحاد الأعضاء الحية للإنسان مع الآلة التي تعمل على إعادة إنتاج ذوات الإنسان أو ذاته الشخصية في عالم افتراضي، "حيث يقوم الفرد عبر الحاسوب بالتمثل كيف يشاء في بناء هويته وذاته الافتراضية، التي تتمثل بشتى تمثلاتها الممكنة في وسائط إلكترونية حاسوبية تجمع بين وسائط الكتابة والصورة والصوت، وتجاوز الزمان والمكان في حركة الفضاء السيبري"¹، وهذا يساعدنا أيضا على فهم السياق الجديد للتفاعل الإنساني مع الآخرين، انطلاقا من إقامة علاقات اجتماعية افتراضية مع المستخدم والآخرين داخل مجتمع جديد يطلق عليه لفظ «المجتمع الرقمي الافتراضي»، المجتمع الذي تكون فيه الذات سايبورغ هي الحامل لكل معاني الإنسان، إذ تعتبر الآلة أو الموقع الإلكتروني المتواصل من خلاله عبارة عن وسيط بين ذوات هؤلاء المستخدمين المشكلين لهذا المجتمع.

هنا يوجهنا إشكال آخر حول الكيفية التي يتم بها إنشاء علاقات اجتماعية رقمية وكيفية التوفيق بينها وبين الواقعية، أصلا ما هو الداعي لإنشائها؟ هل هي الرغبة في الهروب من الواقع والتملص من الالتزامات الاجتماعية الواقعية؟ أم الرغبة في بناء حياة ثانية توازي الحياة الأولى الواقعية؟ وكذلك كيف يتم الانتقال بين هذين الحياتين إن صح التعبير؟ فإذا قلنا إن هذه الهوية التي ينتقل بها المستخدم من مجتمعه الواقعي إلى المجتمع الرقمي ليكون ذات رقمية معبرة عنه كما في الواقع، فإن ذلك يتعارض منطقيا مع بعض المستخدمين الآخرين الذين يعملون على صناعة هويتهم في العالم الرقمي ثم يحاولون نقلها إلى الواقع، لذلك سنعالج هذه الإشكالية وفق العنصرين التاليين:²

1.2 الانتقال من المجتمع الواقعي إلى الرقمي:

يقوم الإنسان المعاصر دائما بالبحث عن أساليب جديدة وحديثة لتحقيق ذاته وفق المستوى الذي يريده، وبظهور مواقع التواصل الاجتماعي كنتاج لثورة الأنترنت والمعلومات الرقمية، وانطلاقا من ميزات التي توفره للمستخدم، إذ قامت بتحقيق له كل ما يرغب أن يكونه أمام الآخرين، حيث وجد هذا الإنسان المستخدم كل ما يتمناه في هذا الفضاء الرقمي، أن يتمظهر بذاته وهويته كيف ما يريد وفي أي وقت يريد، حيث يعتبر هؤلاء المستخدمين أفراد لهم حياتهم الواقعية التي يعيشونها مع المجتمع الذي ينتمون إليه، ولهم بالإضافة إلى ذلك حياة ثانية يبنونها على فضاءات مواقع التواصل الاجتماعي؛ هذه الحياة الثانية قد تكون ماثلة للأولى في بعض الأحيان أو قد تختلف عليها في إطار شخصية رقمية جديدة قد تكون في الكثير من الأحيان أحسن من الأولى بالنسبة للمستخدم، وهذه الفئة غالبا ما تحاول الهروب من ضغوط الواقع الاجتماعي وهويتها الفاشلة في تحقيق رغبات هؤلاء الأفراد بشكل فعلي، غير أن شدة التماهي معها

¹ اتومي، فضيلة ونبيلة بوخيزة، (ديسمبر 2015)، الهويات في مواجهة تقانة المجتمع الشبكي المخلعة-حسابات مستخدمين فايسبوك نموذجا- دراسة استكشافية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 21، ص 241-256.

² خالدي، سعاد، (جوان 2015)، دور الهوية الافتراضية للمتلقى في التغيير السياسي عبر مواقع التواصل الاجتماعي، مجلة دراسات، العدد 07، ص 171-190.

"قد تجعل الهوية الافتراضية للمنتمي لهذا الفضاء تطغى على ذواتهم المادية"¹ في الواقع، ويظهر ذلك في ممارسة سلوكياتهم داخل المجتمع فيما بعد، مما يجعلهم يدخلون في نوع من الاغتراب الاجتماعي نحو ذواتهم الحقيقية، إذ "تعد إمكانية الانغماس داخل الفضاءات الرقمية جانباً مهماً بشكل كبير يمكن الأفراد من الانخراط في العديد من الأنشطة المعقدة والتفاعلات الاجتماعية التي تجعلهم يعيشون في هذه الفضاءات وكأنها عالم حقيقي"².

2.2 الانتقال من المجتمع الرقمي إلى المجتمع الواقعي:

إن هذا المستخدم حين ما يكمل تشكيل شخصيته الرقمية عبر العالم الرقمي الذي قام بالإنسحاب إليه، فإنه في بعض الأحيان يتماهى مع هويته الرقمية القائمة على الحرية في التعبير والتصرف كيف ما يشاء، ويحاول الانتقال بها الى الواقع الذي ينتمي إليه في العالم الحقيقي، في رغبة منه للتخلص من قيود الهوية الواقعية انطلاقاً من نشر الأفكار التي تنبأها في الفضاء الرقمي عبر الواقع المعاش، وهذا ما نلاحظ أنه قد حدث بالفعل في الانظمة الاجتماعية المحافظة والمتعلقة على نفسها، حيث أن بناء الهويات الاجتماعية على مواقع التواصل الاجتماعي ساهم في تعرفها على ثقافة الآخرين، وعمل على برمجتهم على التفاعل معها والانفتاح عليها وهذا ما ينعكس بالضرورة على السلوك الواقعي لهؤلاء الأفراد المستخدمين.

من جانب آخر نجد أن هناك مجموعة من المستخدمين الذين يمثلون الجيل الجديد للمجتمع أو ما يسمى اصطلاحاً بالجيل الرقمي (الأفراد الذين ولدوا بالموازات مع حدوث التطورات التقنية الحديثة)، فهم بمجرد بلوغ سن الخامسة يكونوا قد أتقنوا أجياديات التعامل مع الأنترنت ومواقعها الاجتماعية التي قد صقلت شخصيتهم الرقمية قبل الواقعية، وأكسبتهم قيماً مثالية تتلاءم مع العالم الرقمي لا الحقيقي، وهذا لأن العتاد الرقمي السائد في زمنهم هو الوسيلة الوحيدة للتعرف على العالم الخارجي، إذ يقول «ستيفان فيال» في كتابه "الكيونة والشاشة- كيف يغير الرقمي الإدراك": "أن تكون مولود «العصر الرقمي» يعني أنك مصنوع من المادة ذاتها للتقنية، لواجهات الحاسوب التي تربطك كالجهاز بالواقع، أن تكون مولود «العصر الرقمي» يعني اكتسابك مميزات رقمية ذات هوية رقمية، أن تكون مولود «العصر الرقمي» يعني أنك ولدت بفعل الرقمي، لأن المجيء للعالم لا يكفي من أجل الولادة فقط في العالم، وحدها «الأشياء التقنية» هي من تجعلك موجود في العالم"³، وهذا هو فعل التقنية الرقمية على حياتنا، إذ أنها تحاول صبغها بصيغة رقمية وتجعل منا أناس رقميين نعيش في عالم افتراضي مثالي قبل أن نكون واقعيين.

يبدو أن الشخص الذي يتمثل في شكل أفتار رقمي للتواصل مع غيره، ويقيم الآخرين انطلاقاً من مدى حضور شخصيتهم الرقمية على المواقع الاجتماعية هو شخص غير طبيعي بالمطلق، يمكن أن نطلق عليه اسم الفرد السايبري المفرط في بناء ذاته الافتراضية

¹ طوابية، محمد، المرجع السابق، ص 57

² Nagy, Peter and Bernadett Kole, Op. cit, p276-292.

³ فيال، ستيفان، الكيونة والشاشة كيف يغير الرقمي الإدراك، تعريب إدريس كثير، (2018)، المنامة، هيئة البحرين للثقافة والآثار، ص 135.

المتماهية مع الأنترنت، والتي أصبحت حبيسة الواقع الرقمي أو الافتراضي قبل أن توجد بفاعلية في الواقع المعاش حقيقة، وهذا يجعل من المستخدم إنسان مزدوج الشخصية، يعيش في حالة اضطراب دائم خاصة في تعامله مع الواقع الحقيقي الذي ينتمي إليه، بفعل أخذه للكثير من التصورات الخاطئة عنه من العالم الرقمي.

إن كل التصورات الخاطئة التي اكتسبها هذا الفرد بشخصيته الرقمية أو الافتراضية تتصادم مع معناها الحقيقي في الواقع، فبمجرد خروجه للمدرسة، للجامعة، للعمل، للشارع... الخ، يبقى حبيس شخصيته الافتراضية والرقمية التي تعد إن صح التعبير هي شخصيته الأصلية في هذا المستوى، وهنا تنقلب الموازين حيث كان الصراع في بداية المشروع الرقمي "بين القيم الهوية الحقيقية للشخصية الحقيقية والافتراضية الدخيلة على التنشئة الاجتماعية للأفراد، أما الآن فالصراع أصبح بين قيم الهوية الرقمية وهي الأصل في العالم الرقمي مع قيم الهوية الحقيقية وهي التي أصبحت دخيلة عنهم باعتبارهم مولودين في العالم الرقمي"¹، فأن تكون فردا مولود في عصر الرقمنة، ووجدت كل التكنولوجيات الحديثة في قبضتك فبال تأكيد ستجد صعوبة كبيرة في التعامل مع الواقع خارج هذه التكنولوجيات التي وهبتها لنا ثورة الأنترنت.

3. هويات متعددة تعبر عن ذات غير ثابتة:

يعتقد عالم الاجتماع "إيرفينغ غوفمان" "Erving Goffman" مؤلف كتاب "عرض الذات في الحياة اليومية" الذي صدر سنة 1950 "أننا في حياتنا اليومية نضطلع بأدوار مسرحية متنوعة وبمشاركة الجميع، وكل شخص يختار الأدوار المناسبة له في مواقف متعددة، وكأنه في الحقيقة على خشبة المسرح، فهو يراعي بشكل كبير الجمهور المشاهد، وما يتطلبه كل دور من لغة وخطاب وحركات ولباس وتقاليد خاصة؛ ليحقق النجاح في قمص هذا الدور ضمن فريق المسرحية"²، إذ تحدث غوفمان هنا عن الحياة الواقعية باعتبارها مسرحا كبير يتقمص فيه الرجال والنساء مجموعة من الأدوار لتحقيق أهدافهم الخاصة والعامة على حد سواء.

وبتطبيق هذا الكلام على الفضاء الرقمي الذي أصبح بمثابة العالم الموازي للعالم الحقيقي، نجد أن الإنسان المعاصر المرتبط بالتقنية يتمثل في اليوم الواحد عبر الأنترنت وشبكاتها الاجتماعية العديد من الأدوار أيضا، يتقمص العديد من الهويات الرقمية التي تكون في أغلبها مستعارة من أجل أن يتواصل مع أناس آخرين على أساس المواقف يجد فيها نفسه، ووفق الهوية التي ترضيهم والدور الذي يقبلونه منه عبر تجمعاتهم أو فضاءاتهم العامة، داخل مسرحية افتراضية كانت خشبتها جدران المواقع الاجتماعية والإلكترونية، فالمستخدم يتقمص هوية سياسي لمناقشة القضايا السياسية، ويتقمص هوية رجل الدين للحديث عن كل ما يخص الجانب الديني، ويتقمص هوية الباحث

¹ بيبيمون، كلثوم، (2015)، تصور وممارسة الهوية الثقافية لدى الشباب الجزائري بين الفضاء الرقمي والممارسة الواقعية-دراسة ميدانية لعينة من الشباب الجامعي مستخدمين شبكات التواصل الاجتماعي الفيسبوك باتنة نموذجا، دراسات في التنمية والمجتمع، المجلد 2، العدد 2، ص 41-7.

² السفياي، عبد الله، (4 أبريل 2020)، تقديم الذات في الشبكات الاجتماعية (توبتر نموذجا)، منصة معنى الثقافية، متاح على الرابط التالي <https://mana.net/self-in-twitter>

في نشره أو مناقشته للقضايا العلمية، ويتمصص دور الطبيب، المحامي، المواطن، ... الخ من الأدوار والهويات التي تمنح له المواقع الاجتماعية للأنترنت حرية انشائها وتطويرها وتحديثها للتواصل من خلالها مع الآخرين الذين هم أيضا يقومون بنفس العملية الهوياتية، وبهذا يجد الفرد نفسه قد أسس مجموعة من الهويات المتعددة والمختلفة عن بعضها للتعبير عن ذاته في فضاءات مواقع التواصل الاجتماعي الرقمية.

بالعودة الى الفضاء الرقمي باعتباره مكان لافيزيقي يتواصل فيه الناس بشكل افتراضي، وبعيدا عن أطروحة غوفمان التي حاولنا من خلالها توصيف الحجم الهائل للهويات التي يتمصصها الفرد عبر هذا الفضاء، نجد أن هذا الأخير لا يقوم على هوية واحدة يمنحها لمنتسبيه كما هو الحال في العالم الواقعي، "نظرا لخلوه من التنظيم الإداري الهرمي الذي يضبط الحالة المدنية للمواطنين على الواقع، وفي ظل غياب المحددات الفيزيائية التي تساهم في إضفاء صفة الوجود العيني على ذوات الأفراد، تتضاءل الحاجة أمام الإفصاح عن الأسماء الحقيقية، بل ويتيح الفضاء الرقمي أيضا إمكانية استعارة اسم جديد أو انتحال شخصية جديدة مزيفة، لذلك طالما تركز عملية الاتصال مع الآخر على مفهوم تغييب الوجود العيني في نص مكتوب أو مصور عبر بيئة معلوماتية افتراضية صرفة،"¹ تكون الصورة الرمزية لما ينشره المستخدم أو يكتبه عبر صفحته الشخصية هي المعبر الوحيد عن شخصيته الرقمية أمام الآخرين، فيستخدمها بشكل دائم ويتواصل بها معهم، ولا يمكن لأي أحد متواصل عبر هذا الفضاء تحديد هوية أي شخص آخر يتواصل معه بدقة، فهؤلاء الأشخاص المتواصلين عبر الأنترنت، لا يمكن للآخرين الذين يتواصلون معهم تحديد هويتهم بسهولة إلا إذا كانوا يعرفونهم في الواقع، فقد تكون أسماء المستخدمين وعناوينهم وبعض المعلومات الأساسية المعبر عنها في حساباتهم الرقمية مرئية للجميع، لكنها لا تكشف الكثير عن الشخص الذي يختفي وراء هذا الحساب الرقمي أو ذاك، إلا ما يريد هو أن يظهره للعلن²، حيث "أن كل شخص ممثلا عمليا على الشبكة بعدة طرق، وبعده أسماء، وبعده انتماءات، وهذا ما يعطي للمجتمع الإلكتروني حجما أكبر بكثير من حجمه الحقيقي خاصة في حجم التعقيد، وبالتالي فإن القوة التي يمتلكها هذا المجتمع ليست نابعة من تمثيلات الأفراد لذواتهم عبره، وإنما من قدرته على الربط بينهم بسرعة كبيرة"³ وبدقة متناهية، وأيضا من درجة الغموض الذي تسم حساباتهم الرقمية، حيث أن الأفراد المتواصلين مع بعضهم البعض بعيدين جدا من حيث النطاق الجغرافي، لكن ميزات المجتمع الإلكتروني أو الرقمي تتيح لهم الاتصال مع بعضهم البعض بسهولة وفي نفس الوقت مختصرة بذلك كل البعد الجغرافي.

"يمكن للهوية الرقمية أن تساعد في صيرورة بناء الذات وذلك من خلال توفير أدوات جديدة وهوامش تعبيرية متنوعة للتعبير عن الذات، والتأمل الذاتي والحصول على تغذية مرتدة من الآخرين، فالفضاءات الرقمية تتيح هوامش للتعبير الإبداعي عن الذات أو ممارسة لعبة الهويات، فالمرآة يمكن أن يكيف صفحته الشخصية في مواقع التواصل الاجتماعي من خلال إختيار الصور والموسيقى والنصوص

¹ محمد طوالبية، المرجع السابق، ص 57

² John, Suler, (2005), The online disinhibition effect, International Journal of Applied Psychoanalytic Studies, p322

³ محمد طوالبية، المرجع السابق، ص 57.

المفضلة لديه، كما يمكنه التعبير عن مشاعره وجوانب من شخصيته التي يمنعه الخجل من التعبير عنها في الواقع المعاش، فالأشكال التعبيرية التي يأخذ بها والطرق التي يختارها للتفاعل مع الآخرين يمكن أن تكون تعبيرات حقيقية عن ذاته أو تصورات عن "ذات ممكنة" يقوم بنائها بوعي ويتطلع إلى أدائها في الواقع"¹، هذه الذات مثالية (تخيلية) ليست واقعية بالمطلق يطمح الفرد إلى تحقيقها في العالم الرقمي الافتراضي ومن ثم يتماهى معها فتعكس مباشرة على سلوكه في العالم الواقعي، وهنا يحدث شيء من الاغتراب النفسي داخل مجتمعهم الذي ينتمون إليه، ويتضح ذلك في هذا النوع من الأسئلة التي لا بد وأن يطرحونها على أنفسهم؛ هل هم أولئك الأفراد الرقميين الذين ينتمون إلى فضاءات مواقع التواصل الاجتماعي ويتفاعلون من خلالها مع العالم وينتمون إلى مجتمعات رقمية لا تفرض عليهم أي التزامات اجتماعية سوى الاشتراك في الاهتمامات التي تهندس كينونتها؟ أم هم أولئك الأفراد الذين يعيشون في الواقع وينتمون إلى مجتمع واقعي يفرض عليهم مجموعة من الإلتزامات الاجتماعية باعتبارهم أعضاء داخله؟

انطلاقاً من تماهي المستخدمين مع هوياتهم المصطنعة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، "أضحت الهوية التي ينشئونها مثالية مبالغاً فيها، حيث يتصرف شباب "الثقافة الرقمية" بشكل مختلف على فيسبوك وتويتر وغيرها من المواقع الاجتماعية، ويحرصون على الظهور بصيغة أفضل تبدو مثالية وكأنهم أشخاص في الفضاء الرقمي مختلفين عن الحياة الواقعية تماماً"، يتمظهرون دوماً في شكل إيجابي ولا وجود للسلبات في استعراض معلوماتهم التي تعبر عن ذواتهم في العالم الرقمي، وهو الأمر الذي يدفعنا دوماً للتساؤل حول خوارزميات هذه المواقع كيف تركز دوماً على استظهار ذوات المستخدمين بناء على ما هو إيجابي في حياتهم أو لنقل مثالي؟ لماذا لا تسألنا مواقع التواصل الاجتماعي عن سلبياتنا؟ وتقوم بعرضها على ملفاتنا الشخصية كما تعمل مع إيجابياتنا مثلاً.

إن هؤلاء الأشخاص الرقميون "دائماً يتمثلون عبر الفضاء الرقمي بما يرغبون أن يتمثلوا به، أي يتظاهرون بالأشياء التي يحبونها في التعريف بأنفسهم وبآرائهم وأفكارهم وغير ذلك، وليس شرطاً أن يكونوا كما هم في واقع الأمر، وهذا لا ينفي أن كثيراً منهم يحاول أن يكون صادقاً في كل ذلك، ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين افتراضياً، هو تمثلهم بما يريدون من الآخرين أن يروهم به"²، ولهذا تعدد المظاهر الهوياتية المعبرة عن الذات عندهم فيستخدمون هويتهم الحقيقية بشكل مثالي أو يميلون إلى استعراض هوياتهم بشكل مستعار ليوضحوا مدى ارتباطهم برغباتهم التي لم يحققها لهم الواقع، ويريدون أن يتمظهروا بها عبر الفضاء الرقمي ليفتكوا الاعتراف بها من عند الآخرين المتواصل معهم، ليس من نفس المجتمع الحقيقي الذي ينتمون إليه وإنما من خلال انتمائهم إلى العديد من المجتمعات الرقمية التي تجمع بين أعضائها أفراداً من كافة بلدان ومجتمعات العالم.

¹ الصادق، رابح، (25 نوفمبر 2020)، ترشيد الممارسات الأخلاقية للشباب في الفضاءات الرقمية، مركز الجزيرة للدراسات، متاح على الموقع <http://studies.aljazeera.net>.

² بيبيمون، كلثوم، (2016)، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، مجلة اضافات، العددان 33-34، ص72.

أيضا نجد أن هذه الهويات الافتراضية في العادة ما تكون "متعددة بتعدد المجتمعات الرقمية التي يحاول هذا الفرد الانضمام إليها. حيث أن إحساس الذات بأنها مراقبة بصفة متواصلة يجعلها تلقائياً تحور آراءها ومواقفها واتجاهاتها وفقا لرأي الأغلبية المنخرطة في نفس المجتمع الافتراضي الذي تنتمي إليه بغية الاندماج التام مع أعضائه"¹، وهنا يصبح مفهوم الإنسان لذاته ينبثق من انتمائه لهذه المجتمعات، "وبذلك يمكننا القول بأنه عبر الفضاء الرقمي لتلك المجموعات الرقمية ليس للإنسان الحق في امتلاك هوية واحدة فقط، بل له الحق في امتلاك هويات متعددة وتتنوع وتتعدد المجموعات التي ينتمي إليها، وبالتالي سيتصرف بشكل مختلف في كل مجموعة ينظم إليها بناء على ما تتطلبه من معايير يتم التقيد بها"²، وبالتالي لا تصبح لهم هوية واحدة بل هويات، ولا ذات واحدة بل ذات، لأن كل مجتمع رقمي يفرض عليهم الدخول بهوية وذات معينة، فالمجتمع السياسي يتطلب منهم هوية سياسية، والمجتمع العلمي يتطلب منهم هوية بحثية علمية، والمجتمع الثقافي يتطلب منهم إبراز الهوية الثقافية... الخ، على حسب الدور الذي يريد المستخدم الدخول به وإبراز ذاته من خلاله أمام الآخرين، لكن السؤال المطروح هنا كيف يمكننا توصيف تلك الطرق التي يستحضر بها الافراد ذواتهم بشكل متعدد في مجتمعات الفضاء الرقمي الذي تتيحها وتهندس معالمها مواقع التواصل الاجتماعي؟

4. تمثيلات الفرد الأنترناتي لهويته الرقمية السائلة أو الهوية من الثبات الى المرونة في الفضاء الرقمي.

"تتميز الفضاءات الرقمية بدرجة عالية من اللامركزية وتنتهي بالتدريج إلى تفكيك مفهوم الهوية التقليدي، ولا يقتصر تفكيك مفهوم الهوية على الهوية الوطنية أو القومية بل يتجاوزها إلى الهوية الشخصية، لأن من يرتادونها في أحيان كثيرة بأسماء مستعارة ووجوه ليست وجوههم، وبعضهم له أكثر من حساب"³، وتمثل الذات هنا يكون على حسب طبيعة الرغبة من التفاعل مع الآخرين وأيضا على أساس نوع المجتمع المنتمي إليه، "فالفرد الذي ينخرط في التفاعلات عبر المجتمعات الرقمية له الحق أن يخفي نفسه تحت مسميات مختلفة لاعتبارات خاصة، فهوية الفرد أو شخصيته تختفي في ظل هذه التفاعلات بل وتباین في قوالب عديدة، بالإضافة إلى انسلاخ الفرد عن هويته الشخصية الحقيقية"⁴ ولهذا يتم بناء الهويات الافتراضية بشكل متعدد من طرف هذ الفرد الأنترناتي وفق المستويات التالية:

✓ استخدام هويات الشخصيات المشهورة: قد يقوم الفرد باستخدام اسم وهوية مستعارة لشخصية مشهورة مثلا يرى فيها أنها تمثله، ويريد أن يصبح مثل ذلك الشخص لكن الواقع لا يسمح له بذلك، مواقع التواصل الاجتماعي هنا توفر له ذلك في أن يصبح ما يريد وأن يتقمص شخصية من يشاء في أي وقت يشاء، انطلاقا من استخدام معلوماته وبياناته الشخصية وخصوصياته في مكان بياناته ومعلوماته الشخصية، بل أيضا تتيح له امكانية الاستشهاد بأفكاره للتعبير بها عن نفسه وكأنه هو في الحقيقية «الشخصية المستعارة».

¹ السنوسي، ثرياء، (ديسمبر 2019)، مواقع التواصل الاجتماعي وواقع البناء الذاتي للهوية، مجلة علوم الاعلام والاتصال، العدد 03، متاحة على الرابط <http://www.diraset.com/node/128>

² المرجع نفسه.

³ ساسي، سفيان، (26 أغسطس 2020)، تكوين الهوية الرقمية للشباب الجزائري-مقاربة سوسيولوجية لاستخدام شبكات التواصل الاجتماعي، المؤتمر الرقمي الاول للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مقاربات حول الهوية والجنس، ص 56.

⁴ الفرغار، العياشي، (07 مارس 2020)، الذات الافتراضية والهوية الرقمية للكائن الإلكتروني، صحيفة المثقف، العدد 4932، متاحة على الرابط التالي <https://www.almothaqaf.com/a/qadaya/944104>

ونحن من خلال هذا الكلام إنما نتيح الأمر هنا للفلسفة في أن تفتح نقاشا حول سؤال مفاده، كيف للفرد المستخدم للإنترنت أن ينشط هوياتها من خلال استخدام ذات الآخر المشهورة كهوية للتعبير عن نفسه بشكل مخالف لما هو موجود في الواقع؟ فأن تلغي شخصيتك الحقيقة مقابل استحضار شخصية شخص آخر للتعبير عن ذاتك وهويتك أمر غير طبيعي وفيه ما يقال خاصة من الجانب النفسي للمستخدم وليس الفلسفي فقط.

✓ استخدام الهويات المزيفة: قد يستخدم الفرد هوية ومعلومات شخصية افتراضية غير موجودة في الواقع ويتواصل بها مع الأفراد الآخرين مباشرة، انطلاقا من استخدام الأفكار التي يرى هذا الفرد أنها تمثل ذاته وتفي بالغرض للتواصل مع ذوات الآخرين وجعلهم يتفاعلون معه انطلاقا من جرمهم للاعتراف بشخصيته الافتراضية دون شخصيته الواقعية، وهنا يكون للفرد المستخدم ازدواجية في الشخصية قد تؤثر على هويته الواقعية والأصلية أمام الآخرين في الواقع، لأن هويته الافتراضية لا علاقة لها بالواقعية لا من قريب ولا من بعيد، وبذلك يجد هذا الفرد نفسه سجين هويته الافتراضية، سجين تلك الأوهام التي يعيشها في العالم الرقمي من عدد الإعجابات والمتابعات التي تحصل عليها، بالإضافة الى عدد الأصدقاء الذي يتواصل معهم يوميا، انه شخص أصبح يرى العلم من وجهة نظر افتراضية من خلال ما ينقله الآخرين، ودائما ما يصطدم بعدم مماثلة ما في الافتراضي للواقع الذي يعيشه

✓ القيام بالدمج بين الهوية الحقيقية والمرغوبة للفرد المستخدم: يقوم الفرد بمزج هويته الواقعية مع الهوية المرغوب فيها مستقبلا، انطلاقا من الربط بين هويته الحقيقية وهوية الشخصية التي يريد أن يكون مثلها، فتجده في البداية يستخدم اسمه ممزوجا باسم شخصية مشهورة متعلق بها ويطمح لأن يكون مثلها مستقبلا، انطلاقا من مزج كل المعلومات والمعطيات الشخصية مع بعضها البعض في صفحته الشخصية، مثلا يختار اسم ممثل أو سياسي أو مفكر أو لاعب كرة قدم مشهور يرى أنه يفكر مثله أو يلعب مثله أو يطمح للوصول الى أن يكون مثله، ويجعله كمعبر عنه الى جانب اسمه الحقيقي، بالإضافة الى ذلك استخدام الصور والبيانات الشخصية المتعلقة بكليهما، وهذا ما يندرج تحت مفهوم القدوة التي يسعى بعض المستخدمين لأن يكونوا مثلها، أو تحقيق الرغبة في أن يكونوا نسخة عن النموذج المتأثرين به، خاصة النماذج التي تصنعها وسائل الاعلام التقليدية، وما تصنعه هذه المواقع الاجتماعية من نماذج قابلة للنمذجة من قبل المستخدمين الرقميين.

✓ استخدام الهوية التوافقية مع الآخرين المتواصل معهم: إن الفرد المستخدم للمواقع الاجتماعية يريد في بعض الأحيان أن يدخل نقاش مع مجموعة رقمية معينة لكن هويته الظاهرية ومعلوماته الشخصية لا تؤهلانه للدخول في تلك المناقشات داخل هذه المجموعة، فيقوم بالعمل على تغيير هويته الأصلية ومعلوماته الشخصية وفق ما يتناسب مع الخصوصية التي تتمثل داخلها تلك المجموعة ونوعية القضايا التي تطرحها للنقاش، ومن ثم سيقبلونه كعضو معهم ويمكن له المشاركة في ذلك النقاش داخل فضائهم العام بعد أن رفضوه في بداية الأمر، وهذا ما نسميه بـ «التناغم الهوياتي» الذي تفرضه طبيعة «الهوية الرقمية السائلة» والدائمة التغير في الفضاء الرقمي، فهل نحن

أمام مرحلة جديد من «التقمص الوجداني» المتعدد الأدوار للهوية عبر الشبكات الاجتماعية الأمر الذي جعلها سهلة الاستخدام والبناء والتهديم والتخلي؟ هل هذه الهوية أصبحت تتسم بالمرونة الدائمة بعد أن كانت تتسم في الواقع بالثبات النسبي خاصة من حيث الأسس التي تقوم وتبني عليها؟ ما العلاقة التي أصبحت تربط الهوية الافتراضية بنظيرتها الواقعية؟ ومن منهما تمثل حقيقة الفرد المستخدم؟ أو من منهما أصبح يكشف عن حقيقة هذا الفرد المستخدم الفعلية؟

في النهاية يختلف التعامل مع موضوعات الهوية في المواقع الاجتماعية اختلافا كبيرا عن التعامل معها في الواقع، فهناك من يضع هويته الحقيقية وهناك من يحب إخفاء هويته خلف اسم وهوية مستعارة ولا يكشف عنها، و"بالتالي يكون بوسعه أن يقوم بالعديد من الأدوار في المجتمع الرقمي وفي كل مرة حسب الهوية الإلكترونية التي ينشئها، بالتالي تتعدد التفاعلات التي يقوم بها والعلاقات التي يتفاعل من خلالها حسب طبيعة هذه الهوية¹، فالهوية الافتراضية اذا كانت مستعارة أو مزيفة غالبا ما تكون بأسماء جذابة أمام الآخرين و"هذا ما يدل على أن معظم الشخصيات الرقمية تعمل على جذب وإثارة الاهتمام لدى الآخرين من حيث بث الرغبة فيهم للتعرف على أسمائهم المستعارة، حيث يحرصون على أن يؤدي الغرض في جذب انتباه الآخرين، وفرض شيء من الحضور والتلفات المميز على الأقل من حيث الاسم²، والمعلومات الشخصية الأخرى كالسن والمستوى الدراسي والوظيفة والمستوى الاجتماعي، بالإضافة أيضا الى الصور المنشورة وعدد الإعجابات والمتابعات في الصفحة الشخصية... الخ.

بالإضافة الى ذلك إن هناك العديد من الدوافع التي تكمن وراء تعدد الهويات المتواصل بها عبر الفضاءات الرقمية تدفع المستخدم الى استخدام هويات متعددة وغير ثابتة في التعبير عن ذاته، يمكن لنا عد بعضها فيما يلي:

- ✓ محاولة التخلص من تأثيرات الهوية الواقعية، خاصة فيما يتعلق ببعض الالتزامات الاجتماعية التي تفرضها على المستخدمين.
- ✓ الخوف من الظهور والحجل من استخدام الهوية الحقيقية أمام افتراضات المجتمع الكوني الذي يستدعي ابراز الانفتاح على ثقافات المجتمعات الأخرى بدل من الانغلاق على الثقافة التقليدية للمجتمع الذي يعيش فيه هذا المستخدم.
- ✓ الخوف من الاستخدام السيء للمعلومات أو انتحال الشخصيات.
- ✓ هامش الحرية الكبير لصاحب الهويات المتعددة، فدائما ما تكون له الحرية كبيرة جدا في أن يفعل بحسابه ما يشاء لأنه غير معروف، ومتعدد الحسابات الرقمية.
- ✓ محاولة ملء الفراغ العاطفي الذي تنتجه الهوية الواقعية للفرد ومن العوامل النفسية والاجتماعية والتواصلية الأخرى، التي تتحكم في عملية التعبير عن الذات عبر الفضاء الرقمي الذي تتيحه الأنترنت ومواقعها الاجتماعية الرقمية.

¹ عامر، أمال، (سبتمبر 2016)، المجتمع الافتراضي والهوية الانترنيتية، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، العدد 3، المجلد 3، ص 55-72.

² المرجع نفسه، 68-69.

وبهذا تتحول الهوية الرقمية الى هوية مرنة هوية سائلة تتغير دوريا وفق متطلبات الظروف التي تؤثر على الكيفية التي يستعرض بها الفرد ذاته في العالم الرقمي.

الخلاصة:

إن التغيرات السريعة التي ميزت عصر الفضاء الرقمي الذي ارتباط بتكنولوجيات المعلومات والأنترنت وشبكات الإجتماعية الرقمية، قد أدى الى إحداث الكثير من التحولات على مستوى بناء هوية الأفراد المستخدمين والكيفية التي يعبرون بها عنها أمام الآخرين، إذ يمكننا القول بأن المحددات التقليدية الكبرى لبناء الهوية والتعبير عنها داخل العالم بدأت بالتراجع والتآكل لصالح محددات أخرى جديدة ارتبطت بالفضاء الرقمي، من حيث مدى الحضور والتفاعل وأيضا عدد المجتمعات التي يتم الانضمام إليها من قبل المستخدمين، وعدد الأصدقاء الذين يتواصلون معهم وعدد التفاعلات المعبر بها على صفحتهم الشخصية، بالإضافة الى عدد الهويات التي يتمظهرون بها في هذا الفضاء، فأصبحت هذه الهوية غير ثابتة على حالها تتغير حسب متطلبات طبيعة التواصل لمستخدميها ورغباته من الانتماء الى المجتمع الرقمي المفتوح، ومن خلال هذا وما تحدثنا عنه من إشكاليات في معالجة الإشكالية الرئيسية للموضوع الذي طرحناه في بداية هذه الدراسة النظرية يمكن لنا أن نستخلص مجموعة من النتائج يمكن أن تكون كإجابات منطقية عن أسئلة الدراسة الفرعية:

❖ إن أقل ما يمكننا وصف الهوية الافتراضية به هو أنها هوية سائل تسعى دوما الى القفز على محرمات الهوية التقليدية والأطر التواصلية التي تعمل على تحديدها في علاقات الأفراد الرقميين ببعضهم البعض، إذ أنها تميل الى التعديل من خصوصياتها استجابة للمتغيرات التقنية والأنترناتية التي تحدث عبر الشبكة، وأيضا للتلاؤم ما يتوقعه الآخرين من الهوية المتواصل معها، وهذا لأن الطبيعة التقنية للرقمنة لا تفرض الثبات في محددات الهوية كما يوجد في الهوية التقليدية، بل تفرض عليها دوما أن تكون مرنة من أجل أن تتلاءم مع كل ما يحدث حولها.

❖ نجد ان تقابل الذوات الإنسانية في الفضاء الرقمي لا يتماثل أبدا مع طريقة تقابلها في الواقع، ففي الرقمي نحن دائما نشكل أنفسنا عبر وسيط تقني أصطلح عليه بالآلة، وهذا الوسيط هو الذي يتيح لنا إمكانية التعديل في خصوصيات علاقتنا مع الآخر، فتارة تتمايز بالاتصال وتارة أخرى تتمايز بالانفصال، ولذلك نجد أنه مع كل نشوء لعلاقات اجتماعية رقمية جديدة دوما هناك أخرى تنتهي، أفراد ي حذفون من قائمة الأصدقاء وأفراد آخرون يدخلون إليها، أيضا يتم إلغاء الانتماء لمجتمعات رقمية معينة في مقابل الانضمام الى أخرى جديدة.

❖ يشغل الفضاء الرقمي دائما بشكل ملعن للذات الحقيقية للمستخدم، حيث أنه يفضح تصرفات الإنسان الرقمي (الأنترناتي) وما يوجد بالكينونة الداخلية له ويجعلها ظاهرة للعلن أماما الآخرين من خلال تركيزه على بناء الصورة الرمزية المعبرة عنه (أفاتار)، وهنا نطرح إشكال مفاده هل الرقمي أصبح يعبر عن حقيقة المستخدمين؟ هذا باعتبار أن ما يوجد فيه من تمثلات لذوات الأفراد هو الحقيقة الفعلية لهم، وأن ما يوجد في الواقع من تمثلات لتلك الذوات ما هو إلا شكل مزيف ومصطنع استجابة لما تفرضه العلاقات الاجتماعية من طرق تواصل وأيضا ما تفرضه الثقافة المجتمعية من عادات وتقاليد مقيدة لسلوك الفرد داخل المجتمع الحقيقي الذي يعيش فيه.

❖ لا يمكن أبدا التسليم بأن الهوية الأنترناتية هي امتداد للهوية الواقعية، بل بالعكس تماما خاصة عند الجيل الرقمي، ذلك لأن هناك بعض الهويات التي تنشأ على الشبكة دون أن تكون لها أي علاقة بالواقع الذي ينتمي إليه الفرد الذي تعبر عنه، بل إننا في بعض الأحيان نجد أن هناك العديد من الهويات التي تصنع في الفضاء الرقمي ومن ثم تمتد الى أن تصبح واقعية، خاصة حينما يتعلق الأمر المؤثرون الاجتماعيون بالإضافة الى صناع المحتوى الرقمي وغيرها من النماذج.

❖ إن تشتت الذوات الإنسانية في الفضاء الرقمي الذي تشكله مواقع التواصل الاجتماعي ناتج عن أنها تشغل وفق الفعل اليومي للمستخدم وتختلف باختلاف المواقف الرقمية التي يتعرض لها، وهو الأمر الذي يجعل المستخدم يعبر عن العديد من الذوات استجابة لتلك المواقف، لدرجة في بعض الأحيان لا تعرف ذاته الحقيقية من الذوات الأخر الغير حقيقية التي يعبر بها.

❖ يمكننا إرجاع تشظي الهويات الفردية في المجتمع الرقمي الى حالة الانطواء التي يمارسها الفرد الأنترناتي على الهوية الافتراضية دون التركيز على الهوية الحقيقية له، وهذا ما ينتج عنه تقليل تواصل هذا الفرد مع الآخرين والاكتفاء بالمراقبة لكل ما يحدث في هذا المجتمع، نظرا لضعف التفاعل مع المنشورات التي ينشرها أو للعدد القليل من الأصدقاء والمتابعين له.

وأخير يمكن لنا القول التواصل في العالم الرقمي أصبح غامض جدا بين الفرد والآخر، إنه التواصل الغير محسوس في الواقع، الذي تكون فيه الألة هي القيمة المادية الوحيدة التي يمكن ملاحظتها والإحساس بها، في ضل غياب الإحساس بالعلاقة الطبيعية بين الفرد والآخر الذي يتواصل معه، حيث تتماهى المشاعر بشكل سريع جدا وتستجيب لطبيعة اللحظة التي يعيشها هذا الإنسان المستخدم، وقد يعبر عنها انطلاقا من التفاعلات الرمزية التي توفرها له الألة التكنولوجية بالعديد من المشاعر مرة واحدة وفي نفس اللحظة، هذا كما يلاحظ كامبرون بايلي "أن التقابلات الثنائية بين أنا/الآخر، الأبيض/الأسود، الذكر/الأنثى، الكاتب/القارئ، ستندثر في عالم الخطاب الإلكتروني البعيد من اليقين أشد البعد، فالرسائل التي تأتي وتروح من دون وجه، والحوارات التي تتم من دون أن ترى أطراف الحوار"¹

كلها خالية من المشاعر الحقيقية تتحكم بها المشاعر الزائفة واللحظية السائلة ما تلبث أن تنتهي بمجرد انتهاء المحادثة أو تغيير الأشخاص المتواصل معهم.

توصيات ومقترحات:

نقترح مجموعة من التوصيات التي يمكن الأخذ بها من أجل بناء فهم أوضح ودقيق لكل ما يتعلق بالظاهرة الرقمية، بالإضافة الى تفادي حدوث على الأقل بعض الانعكاسات السلبية لتبني الهويات الافتراضية عبر فضاءات مواقع التواصل الاجتماعي على نفسية المستخدمين الرقميين:

✓ يجب العمل على إجراء دراسات ميدانية اثنوغرافية تقترب من ظاهرة الفضاء الرقمية لتتعرف عن كثر على كيفية بناء الهويات الافتراضية وتمثل الذوات الانسانية عبر المواقع الاجتماعية، والعمل على ابراز اختلافاتها عند المستخدمين الرقميين.

✓ تشجيع الدراسات التحاقلية التي تعمل على الربط بين العديد من العلوم خاصة العلوم الانسانية والاجتماعية مجتمعة، وهذا من أجل الاقتراب أكثر من هذه الظواهر الرقمية التي لا يمكن فهمها انطلاقا من زاوية واحدة أو علم واحد، فهي تمثل ظاهرة إنسانية ذات مكونات تواصلية واجتماعية وثقافية وأنثروبولوجي ونفسية وسياسية وفلسفية بالدرجة الأولى، بمعنى لها العديد من الزوايا التي تتكامل فيما بينها لتعطي لها فهم واضح.

✓ العمل على وضع برامج تربوية لتعليم أفراد المجتمعات طرق التعامل الايجابي مع التقنيات الحديثة والاستثمار فيها بما ينفعهم لا ما يضرهم ولتفادي الكثير من الانعكاسات السلبية، خاصة أفراد الجيل الرقمي الذي أصبح يكتشف العالم لأول مرة من خلال ما تقدمه له الألة (الحواسيب، الهواتف، الألواح الالكترونية وما تحتويه من مواقع رقمية مرتبطة بالإنترنت)